## كيف عالج الإسلام مشكلة المراهقة ؟

إن الميل الجنسى فطرة فطر الله الناس عليها وهو من أهم الدعائم التى تقوم عليها الحضارة الإنسانية والتمدن البشرى ذلك لأن ميل كل جنس إلى الآخر ينشىء بينهما روابط وأواصر قوية تكون سببا لإدامة العشرة وطول الصحبة .

ولا شك أن هذه الأواصر الوطيدة التى أوجدها الميل الجنسى فى بنى الإنسان الذكور منهم والإناث تقتضى أن يكون بين الجنسين علاقات أهم من هذه العلاقات الجنسية التى تبلغ ذروتها فى لحظة الالتقاء ثم تنطفىء جذوتها ، ويخبو أوارها عقب الالتقاء مباشرة .

إن الإنسان بفطرته التى فطر عليها يشعر من قرارة نفسه بحاجته إلى دوام هذه العلاقة واستمراريتها ، ويحس أن العلاقة الجنسية غير كافية لإشباع رغبته الملحة فى إنشاء وضع مستقر بين الجنسين لهذا فهو دائم التفكير فى إقامة هذه العلاقات التى تضمن للجنسين الاستقرار وتكوّن منهما مجتمعا يقوم على أسس قوية ، لا تتعرض للهزات العاطفية ولا تنتهى بقضاء الوطر .

والإنسان دائم التفكير فى تكوين هذا المجتمع سواء أحس بذلك أم لا ، لأن الدوافع الداخلية الملحة ، والنزعة الاجتماعية التى تسيطر عليه تجعله يسعى إلى إيجاد هذا المجتمع الذى يحس إليه حنينا فطريا لا يملك مدافعته أو صرفه عن نفسه .

ولا يمكن أن يقوم هذا المجتمع على الحب وحده ، لأن الحب قد ينقلب إلى بغض لسبب من الأسباب ، والأسباب التى تؤدى إلى التباغض بين الناس كثيرة لا تحصى ، منها المادى التى تتعلق به النفوس وتحب الانفراد به ، وتبغض أن

يشاركها فيه غيرها ، كالمال و القصور والضياع ومنها المعنوى الذى تفخر به على أقرانها ، وتحسبه غاية الغايات فى حياتها ، كالمنصب والجاه .

فإذا تأسس المجتمع على نحو هذا الحب ، فهل هناك ضمانات تكفل لنا دوام هذا الحب حتى يستمر المجتمع فى أداء مهمته ؟ .

لا يستطيع أحد مهما كان متفائلا أن يجزم بدوام الحب بين الناس حتى يبقى المجتمع سليما من الثلمات ، بعيدا عن الهزات .

ولا يمكن أن يقوم المجتمع على العلاقات الجنسية فقط ، لأننا كما نحس جميعا أن هذه العلاقات وقتية تشب وتشتعل وتبلغ مداها فى لحظة ، ثم لا تلبث أن تهدأ وتخمد فى نهاية هذه اللحظة ، ومجتمع يبنى حياته على أسس متغيرة متقلبة لا يمكن أن يكتب له الدوام و الاستقرار .

إن قيام المجتمع على العلاقات الجنسية يحول هذا المجتمع إلى مجتمع بهيمى ، يلتقى فيه الذكر بالأنثى فى لحظة الشبق ، ثم ينفصل كل منهما عن الآخر ، قد يكون إلى حين ، وقد يكون إلى الأبد .

وكثيرا ما يبحث كل من الطرفين عن بديل يقضى معه وطره ليتعرف على شيء جديد فى حياته الجنسية ، كما يحدث ذلك فى المجتمعات التى بنت حياتها على تلك العلاقات .

فالعلاقات الجنسية إذن عامل من عوامل الهدم والتدمير كما رأينا فى المجتمعات الغربية والشرقية غير الإسلامية إذا لم تحصن بالضمانات الكفيلة بجعلها صالحة لبناء مجتمع قوى قادر على الدوام والاستمرار ، وهذا هو المجتمع الذى ينشده الإنسان .

إن العلاقات الجنسية إذا تركت للناس يمارسونها بغير حدود هدمت المجتمع ، وقوضت بناءه ، وعرضته للزوال والفناء .

وتكون ممارستها على هذا النحو نهاية للحضارة الإنسانية ، وخاتمة للرقى والتمدن اللذين يسعى الإنسان جاهدا لتحقيقهما .

ومن جانب آخر فنحن لا نستطيع كبتها ولا القضاء عليها ، لأن ذلك إعلان للحرب على فطرة بشرية شاء الفاطر – جل شأنه – أن تبقى قائمة بين بنى الإنسان من الجنسين ، لأنها كما قلت سابقا مصدر الأواصر والروابط التى يبنى على أساسها المجتمع الصالح .

والمجتمعات التى تحاول كبت هذا الميل الجنسى والقضاء عليه مجتمعات مريضة فى حاجة ماسة إلى علاج سريع يصحح مسيرتها ويخفف من غلوائها ، وهى مجتمعات ضعيفة عاجزة عن مواجهة الفطرة التى ينبغى استغلالها لتكوين المجتمع ، وتأسيس الحضارة .

ولا فرق فى نظر الإسلام بين الذين يؤججون نار الجنس ويتركون الناس كالطلائق فى الحظائر ينزو بعضهم على بعض ، ويتسافد الجنسان فى الطرقات بغير استحياء ولا خجل ، وبين الذين يختَصُون ويترهبون ، ويقتلون الجنس البشرى فى صورة ما من الصور .

كلاهما فى نظر الإسلام مخطىء ، وإن فحش خطأ أحدهما عن الآخر ، وكلا الأمرين فى نظر الإسلام منهى عنه ، وإن اشتد الوعيد فى الأول منهما .

والإسلام كما جاء به رسول الله ﷺ دين الفطرة ، يقول ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »(١) .

والله – عز وجل – يقول فى القرآن الكريم : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾(٢) .

فالإسلام إذن لا يتعارض مع الفطرة فيعطلها ويلغيها ، ولا يهمل تقويمها وتهذيبها ويتركها تخضع لأهواء الناس ورغباتهم .

ومن هنا تحددت مهمة الإسلام ، واتضحت معالم مسيرته فى هذا الطريق الشاق الوعر الذى هو علة علل الإنسانية فى ذلك الزمان .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن .

(٢) سورة الروم : الآية ٣٠

الإسلام ينظر إلى الميل الجنسى بين بنى الإنسان على أنه أحد الدعائم الهامة التى تطور الحياة البشرية ، وتنمى الحضارة وتثريها ، ولا يمكن للميل الجنسى أن يبلغ تلك الغاية وهو ضائع بين التفريط و الإفراط ، فلابد إذن من الاعتدال ، واتخاذ الحد الوسط حتى نصل إلى الغاية المؤدية إلى بقاء النوع الإنسانى ، وإقامة المجتمع المثالى المنشود .

وكثيرا ما يصاب الإنسان بالقلق النفسى و الاضطراب العصبى نتيجة لهجوم التغييرات المفاجئة فى حياته ، والعامل الدينى هو صمام الأمن للإنسان فى تلك الحالة .

إن تدخل الإسلام لتنظيم حياة الناس العامة والخاصة على حد سواء يعتبر العامل الرئيسى فى إيجاد حياة هادئة ينعم بها الناس الذين يعيشون تحت رعاية الإسلام ، وعلى أرضه سواء منهم المسلمون وغيرهم .

ونحن لو اتبعنا هذا النظام الذى وضعه الإسلام نستطيع أن نقضى على القلق النفسى لدى الشباب ، وأن توجد الروابط الوجدانية التى تشد المجتمع بعضه إلى بعض ، ونضع المعالم الصحيحة للعلاقات الإنسانية التى يترتب عليها النظام الحضارى والتمدن الاجتماعى .

ولقد أقام الإسلام مجتمعه على هذه النظم فكان المجتمع المثالى الذى يزهو به التاريخ فى حقبة من حقبه المتتابعة .

والفرق بين المجتمع الإسلامى والمجتمعات المعاصرة يكمن فى طريقة العلاج الذى وضع لمواجهة المشكلة ، ففى الوقت الذى يهذب الإسلام فيه الغرائز ، ويوجهها نحو الخير بدون كبت أو مصادرة ، يفتح المجتمع المعاصر كل السبل أمام الميل الجنسى ، بل ويبتكر كل يوم جديدا لتهييج الغرائز ، وتأجيج نار الشهوة المسعورة فى نفوس الشباب دون أن يكلف نفسه أو حتى يترك المصلحين فيه يضعون الحدود التى ينبغى أن يقف عندها ذلك التيار الجارف من الخلاعة والفحش والفجور .

لا عجب إذن أن يخرج الإسلام إلى المجتمع نماذج رائعة من الرجال الذين ترفعوا عن الدنايا ، وسمت أخلاقهم عن أن تدنس بعار الفحش والفجور ونظروا إلى الدوافع الجنسية على أنها وسيلة لإيجاد الروابط المتينة بين البشر ، فلم تستعبدهم شهوة ، ولم تستبد بهم نزوة .

وهذا نموذج من هؤلاء الرجال ، إنه مرثد بن أبى مرثد ، كان له فى الجاهلية ليال مع عناق البغى ، فلما أسلم هجرها ، وهاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة .

خرج ذات يوم لإنقاذ بعض المسلمين المحبوسين فى مكة ، وبينما هو يمشى متخفيا فى شوارع مكة ، وصل إلى بيت تلك البغى - عناق - فلما رأته رحبت به ، وظنته عاد إلى سالف زمانه ، وأنه جاء ليقضى ليلة معها كسابق عهده ، فقالت له : « مرحبا بك يا مرثد ، هيا إلى البيت ، تقضى ليلتك عندنا » .

فقال لها مرثد : « لا يا عناق ، لقد حرم رسول الله ﷺ الزنا » .

فغضبت عناق ، لأنه حطم كبرياءها الذى تذل به الرجال وسخر من جمالها الذى طالما طأطأت به هامات الأبطال ، فصاحت به ، وأغرت به أهل مكة ليقبضوا عليه ، ولكنه استطاع الهرب(١) .

إنه رجل ككل الرجال ، تتعرض له امرأة له معها ذكريات ، وقضى عندها ليال وليال ، وتدعوه إلى بيتها وإلى فراشها فيأبى ويتمنع ، لا لأنه خال من فحولة الرجال ، ولا لأنه عاجز عما يعمله غيره مع أمثالها من البغايا ولكن لأن الإسلام حرم الزنا .

إذن لقد كان يكفى لمحاربة أية رذيلة من الرذائل أن ينهى عنها الرسول ﷺ وأن يعلم المسلمون أنها حرام حرمها الله .

وحتى الذين وقعوا فى هذه المعصية ، وارتكبوا تلك الجريمة تحت وطأة ظروف قاهرة لم يستطيعوا الإفلات منها ، لم تهدأ ضمائرهم ، ولم تنم قلوبهم بل

---

(١) رواه النسائى .

ثارت بهم ثورة عاصفة ؛ جعلتهم يذهبون بأنفسهم إلى رسول الله ﷺ ويطلبون منه أن يطهرهم من الجريمة التى اقترفوها ، وأن يقيم عليهم الحد حتى يلقوا الله – عز وجل – أطهر من ماء البحر ، وأنظف من برد السماء .

نعم حدث هذا فى المجتمع الإسلامى ، وليس مجرد خيال شاعر ، ولا وهم قصاص ولكنه حقيقة سجلها التاريخ ليفخر بها على الأجيال التى استعبدتها الشهوة ، وصيرت الدنيا بهم حديقة للحيوانات ينزو بعضها على بعض بلا خجل ولا استحياء .

وليس هذا الاعتراف الجرىء الذى يقدر المعترفون ثمنه جيدا ،ويعلمون أنه سيكلفهم حياتهم ، نتيجة خوف من البشر ، أو طمعا فى أن ينالوا به شهرة ومكانة ، ولكنه فى الحقيقة نتيجة مراقبة لله – عز وجل – هى غاية فى السمو الروحى جعلت صاحبها يشعر بخطئه ، ويعترف بذنبه أملا فى أن ينال عفو الله ورضاه ، وكان هذا هو السر فى إلحاحهم على الرسول ﷺ بأن يطهرهم ويقيم عليهم الحد .

ولعل اعتراف المرأة الغامدية بارتكابها جريمة الزنا أروع وأعجب من إعتراف ( ماعز ) ، فالمرأة عادة رقيقة القلب هيابة ، يفزعها الخبر المؤلم ، ويكدر صفوها الكلمة النابية ، فكيف نفسر اعترافها بارتكاب تلك الجريمة وهى تعلم ما سيترتب على ذلك من العار لقومها ، والرجم حتى الموت لنفسها ؟

لقد منحها الرسول ﷺ فرصة لسحب اعترافها ، والتخلى عن إقرارها ، ولو فعلت لأنقذت شرفها وحياتها ، لقد أجلها الرسول حتى تضع حملها ، ثم أجلها حتى تفطم ولدها ، ولكن ضميرها لم ينم ، وقلبها لم يقبل التغاضى عن جرم قارفته فى لحظة ضعف أمام الإغراء الذى لم تستطع مقاومته ، فلم تر بدا من الاعتراف لتتطهر من ذلك الرجس الذى وقعت فيه .

وهى ولا شك كانت تؤمن تماما بأن إرضاء ربها خير من التستر على شرفها ، وأن ما تستقبله من النعيم الدائم أفضل من البقاء والعافية تحت وخز الضمير وبشاعة الجريمة .

والإسلام لم ينس لها ولماعز ذلك الموقف النبيل ، بل حفظه لهما مع التعظيم والتقدير ، وقد كانت كلمات رسول الله ﷺ أصدق تعبير عن هذا التعظيم والتقدير حين قال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله – تعالى – »[1] .

كذلك قال عن ماعز بن مالك – رضى الله عنه – : « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم »[1] .

وهكذا يفتح الرسول ﷺ باب التوبة للمذنبين ، ويشجع العصاة على الإنابة والعودة إلى الطريق السليم حتى لا يستخفى من يقع فى الجريمة فلا يعاقب ، فيؤدى ذلك إلى تفشى المنكرات وعدم التحرز من الموبقات .

إن ماعزا والغامدية قد شعرا بأنهما أخلا بنظام المجتمع الذى يعيشان فيه ، وأنهما قد عرضا الروابط الوثيقة بين أفراده للانهيار والتفسخ ، فكان لابد من أن يضحيا ، فبذلا حياتهما راضيين ليعيدا للمجتمع نظامه ويؤكدا بذلك الوشائج التى تربط بين المسلمين .

نعم ، إن المعاشرة غير المشروعة تفسد العلاقات بين الناس ، وتكدر صفو المجتمع ، وتبدل حبه كراهية وبغضاء ، ولهذا حرمها الإسلام ، وجعلها أبشع الجرائم وأنكدها .

وتلك المعاشرة غير المشروعة هى التى أوصلت المجتمعات المعاصرة إلى ما وصلت إليه اليوم من التفكك والتمزق ، ذلك لأن الرجل عندما يعاشر المرأة معاشرة غير مشروعة يفسد بذلك ما بينهما من العلاقة ، لأنه يتركها ويبحث عن غيرها فيغضبها ذلك ، وتحاول الانتقام لنفسها ، وإن حملت منه كان ذلك الحمل سببا فى العداوة والبغضاء بدلا من أن يكون أحد الروابط التى تشدهما وتوثق علاقاتهما ، حيث يفر الرجل ويأبى أن ينسب الولد إليه ، وتتحمل المرأة مالا تطيق بكفالة الولد والإنفاق عليه ، هذا إذا تركته ، وقد يؤدى بها الحال إلى قتله والتخلص منه .

---

(١) رواهما مسلم .

وتصور شعور أم تقتل ولدها بيدها ، وهى تعلم أن الذى دفعها إلى ذلك هو جحود ذلك الأب المنكود ، وعدم اعترافه بالجنين الذى دفنه بخسته فى الثرى قبل أن يدفنه فى أحشائها .

فهل ينتظر المجتمع مثل هذا ، يعيش الناس فيه على تلك العلاقات الجنسية المشبوهة أن يكون بين أفراده شيء من الحب ، أو شيء من التعاون والترابط ؟

أدرك الإسلام ذلك كله ، فواجه المشكلة فى حزم ، وحدد معالمها فوضع لها الحلول المناسبة ، وبدأها بالزواج .

والزواج هو الطريق الوحيد للمعاشرة المشروعة ، وهو الوسيلة الفعالة لتوثيق العلاقات بين أفراد المجتمع ، ففى الزواج تتم المصاهرة بين العائلات ، ويتحقق الترابط بين الزوجين ، وتتكاثر الأسرة تكاثرا ينمى المجتمع ، ويزيد فى قوته وإنتاجه .

وبالتناسل تقوى علاقة الرجل بزوجته ، فالإنجاب يجمعهما حول الوليد ، ويربط بين قلبيهما الحب المتبادل له ، وبذلك تزداد أواصر المحبة ، ويعيش المجتمع كأسرة واحدة لحمتها المصاهرة وسداها النسب .

ولم يعرف البشر منذ خلق الله الخلق ، ولن يعرفوا حتى يرث الله الأرض ومن عليها علاجا لمشكلات الجنس أنجح من الزواج المبكر .

لهذا صدَّر به الإسلام حلول المشكلة ، ودعا إليه الرسول ﷺ دعوة حارة تشعر منذ الوهلة الأولى بأهمية الحل .

يقول ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[1] :

وكما أمر الشباب بالإسراع فى الزواج ، أمر الآباء بتزويج أهل الخير و الدين « إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ، إن لا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض »[2] .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجة .

وخفف من الصداق حتى أصبح فى متناول كل فرد ، فجعله مرة خاتما من الحديد ومرة حفنة من شعير ، وثالثة ما يحفظه المسلم من آيات القرآن الكريم ، وهكذا يصبح الحل عمليا لمشكلة استعصت على الأمم المتحضرة وحارت فيها عقول المفكرين .

ونحن نلاحظ أن الأمر قد هان ، ولم يعد هناك مشكلة تشغل بال المصلحين ، فالشباب مأمورون بالزواج ، والآباء مأمورون بالتزويج والصداق فى متناول أضعف الناس .

ولو تأملنا هذا التهديد المخيف فى الحديث « إن لا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » لعلمنا كيف حرص الإسلام على حل المشكلة .

نعم ، أى فتنة أخطر من منع الشباب والشابات من الزواج ، وأى فساد أبشع من ترك المجتمع تتخطفه الشهوات ، إن الإعراض عن الزواج سواء كان لغلاء الصداق أم لرفض الآباء مفسدة لا تعدلها مفسدة ، وفتنة تأتى على الأخضر واليابس .

وماذا بعد أن ينتشر الفساد فى المجتمع ؟ وماذا بعد أن تتأجج نار الفتنة فى شبابه وشاباته ؟؟

ليس بعد هذا سوى الدمار والخراب والقضاء على مقومات الحضارة والتمدن فى هذا المجتمع المبتلى بالفتنة والفساد .

ولا يتمارى اثنان فى أن الزواج المبكر هو الحل الأمثل لمشكلة انتشار الدعارة والفجور ، ذلك لأنه يحصن الرجل ، ويحمى المرأة ، وما يكون بينهما من المحبة والمودة يدفع كل واحد منهما على إرضاء صاحبه ، والمعاشرة الحسنة تؤدى إلى الوفاء المتبادل بينهما ، والعلاقات الجنسية الحلال تحفظهما من الزلل والانحراف .

وهناك صنف من الناس لا تقنعه امرأة واحدة ، ولا تشبع رغبته ولا تملأ عليه حياته ، وذلك واقع لا يمارى فيه إلا جحود ، فما موقف الإسلام من هذا الصنف ؟

الإسلام كدين واقعى يعالج مشكلات الناس من خلال الواقع الذى يعيشونه ، لا يمكنه أن يتغاضى عن ذلك أو يتجاهله ، لأن التغاضى عن مثل هذا الأمر يترتب عليه من المحاذير ما يفسد حياة الناس ، ويسىء إلى العلاقات القائمة بينهم ، بل ويعرضها للانهيار والانقطاع .

لهذا أباح الإسلام تعدد الزوجات حتى يشبع النفوس النهمة ، فلا تتطلع إلى المحرمات ، ولا تخادن من وراء الزوجات ، ولا شك أن زواج الرجل باثنتين أو ثلاث خير من أن يخادن النساء الأجنبيات ، أو يعاشر معاشرة غير مشروعة الفاجرات العاهرات .

ونحن لو تأملنا حكمة التعدد ، وما أدى إليه من صيانة المجتمع من الفساد ، وما أسداه إلى أفراد الأمة من تقويم سلوكهم وحفظهم من الانحراف ، لأدركنا أن التعدد من أعظم ما قدم للبشرية من التشريعات التى تحفظ على الناس دينهم وأعراضهم ، وتدعم المجتمعات بالروابط المتينة التى تزيدها قوة أمام تحديات الحضارة المادية ، وثباتا فى مواجهة المغريات الجسدية .

إننى أعتقد أن ما آلت إليه المجتمعات المعاصرة من التهتك والانحلال إنما هو نتيجة حتمية لأسباب كثيرة أهمها عدم التعدد ، حيث توجد فى بعض الرجال طاقات جنسية لا يستطيع إشباعها مع زوجة واحدة ، وبخاصة ولو لاحظنا أن الدورة الشهرية تعاود المرأة بمتوسط ستة أيام فى الشهر ، فإذا لم يجد فى تلك الفترة ، وفى غيرها من فترات النفاس التى تستمر عند بعض النساء ستين يوما من يقضى معها وطره فى الحلال اضطر إلى أن يلجأ إلى الحرام .

وليس التعدد فى مصلحة الرجال فقط ، بل هو كذلك يحقق للمرأة نصيبا كبيرا من الحياة الشريفة العفيفة ، فكثيرا ما يتضاعف عدد النساء ، ويربو على عدد الرجال ، وبخاصة فى أمة مجاهدة يكون الجهاد فى حياتها فريضة ماضية تدافع به عن دينها ، وتحفظ وطنها من اعتداء المعتدين .

فحينئذ لو اكتفى كل رجل بامرأة واحدة فأين تذهب الباقيات ؟ ومن الذى يرعاهن ويكفلهن ، ويحفظ عليهن أعراضهن وكرامتهن ؟؟

فهل يتركن بغير عائل ؟ ولو وفرت لهن الدولة سبل العيش ، فمن الذى يعفها ، ويصون شرفها ، ويقوم سلوكها إذا انحرفت تلبية للرغبة الفطرية فى الإنسان ؟

إن الحياة بالنسبة للإنسان ليست محصورة فى لقمة يأكلها ، أو ثياب يلبسها ، أو قصور يسكنها ، أو مراكب فارهة يستخدمها ، بل هناك فى حياة الإنسان ذكرا أو أنثى ما هو أهم من ذلك كله ، هناك الحياة الروحية التى يتصل فيها بالملأ الأعلى ، وهناك إشباع الرغبات الفطرية التى تلح على الإنسان من داخله .

إن الله – عز وجل – خلق الإنسان ، وأودعه تلك الغرائز لا ليقتلها ولا يلتفت إليها ، ولا ليفلتها ولا يهذبها ، ولكن يستخدمها فى تهذيب سلوكه وإعفاف نفسه ، وإعمار الأرض التى يسكنها ، وكيف يحقق ذلك كله إلا عن طريق المعاشرة المشروعة التى تلبى حاجاته الفطرية ، وتحفظه من الانحراف والزلل ؟ فإذا لم يتوفر له ذلك حلالا طيبا ، جنح إلى الالتواء ، ومال إلى المنعرجات ، والتمس لنفسه وسيلة يشبع بها رغباته دون أن يفكر فى مشروعيتها أحلال هى أم حرام ؟

ولا شك أن تعدد الزوجات يكفل لكلا الجنسين تلك الحياة الهانئة النظيفة عند الحاجة إليه ، ويحقق للمجتمع الترابط والتوازن والازدهار .

وهناك ثغرة أخرى ينبغى معالجتها مادمنا قد تعرضنا للكلام فى هذا الموضوع ، وتلكم هى أن الإنسان قد يقع نظره على امرأة تسير فى الطريق فتعجبه ، وتقع من نفسه موقعا قد يؤدى به إلى الجنوح والحيدة عن الجادة ، فماذا يفعل إذن ؟

ونحن نرى أن ما حدث كان نتيجة للنظرة ، والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، تفتح على الإنسان أبوابا من الشر لا قبل له بها ، وتنغص عليه عيشه الرتيب الهادىء الذى كان بالأمس جنة وارفة الظلال يأوى إليها فيجد فيها راحة نفسه وطمأنينة قلبه ، فإذا هو اليوم ، وبعد أن أباح لعينه النظر إلى مالا يحل له

فى تعاسة وشقاء ، لم تعد زوجته سكنا له ، ولم يعد بيته ذلك العش الجميل الذى يرتاح إليه ، بل تغيرت فى عينه كل القيم ، واختلت فى نظره كل المعايير ، وتشبث قلبه بسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

من أجل هذا أمر الإسلام بغض البصر للرجل والمرأة على حد سواء لأن ما يعجب الرجل من المرأة يعجبها منه ، قال - تعالى - : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ﴾[1] ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ﴾[2] وغض البصر من الحلول التى عالج بها الإسلام المشكلة فأتت ثمار طيبة ناضجة .

فإذا حدث ووقع نظر الإنسان على امرأة ما وأعجبته ، فعليه أن يبادر إلى أهله ، ويقضى معها حاجته ، فإن ذلك يهدىء من نفسه ويسكّن قلبه ، ويبعد عنه ما علق به من أثر تلك النظرة الشاردة .

وقد علمنا رسول الله ﷺ ذلك ، حين رأى امرأة فذهب إلى زوجته - زينب بنت جحش رضى الله عنها - فقضى معها حاجته .

وفى الحديث أنه ﷺ - خرج بعد ذلك إلى أصحابه فقال : « إن المرأة تقبل فى صورة شيطان ، وتدبر فى صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما فى نفسه »[3] .

وفى رواية عند الخطيب عن عمر - رضى الله عنه - : « إذا رأى أحدكم امرأة حسنة فأعجبته فليأت أهله ، فإن البضع واحد ، ومعها مثل الذى معها » .

وقدم الإسلام علاجا آخر للمشكلة يعين الرجال والنساء على حد سواء على مواجهة ما يتعرض له الإنسان من المواقف المحرجة التى قد تؤدى إلى الانزلاق والتردى ، وذلكم العلاج هو الصوم .

---

(١) سورة النور : الآية ٣٠ .
(٢) سورة النور : الآية ٣١ .
(٣) رواه مسلم .

حقا إنه علاج من نوع جديد لم تألفه النفوس ، ولم تتعرف على قيمته القلوب ، ونحن لو بحثنا فى حقيقة هذا العلاج لوجدنا أنه يعالج الموضوع من جذوره فيستأصله ، وخير العلاج ما يجتث المرض من أصوله فلا يبقى له على أثر .

وأصل هذا المرض الذى استشرى فى بنى الإنسان على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم هو الإسراف فى الطعام والشراب ، والتفنن فى ألوانهما مما يزيد فى القوة البهيمية فى الإنسان .

فإذا نحن نظمنا عملية الطعام ، وأعطينا للجسم حاجته التى يستطيع بها أن يقوم بواجباته ، وقوينا الجانب الروحى بقدر تقويتنا للجسم ، نكون قد حددنا للجسم حدوده التى لا يتعداها إلا فى حالة ا لشذوذ أو الضغط الذى لا يستطيع الإنسان مقاومته .

والصيام هو الذى يقدم للإنسانية هذا العلاج الناجع ، فإنه يحدد للإنسان وجبات الطعام ، وبما يحدثه فى الجسم من الفتور نتيجة الجوع يخمد نار الشهوة فلا تثور ، ويضيق مجارى الشيطان فلا يجد متسعا للإغراء ، وفوق ذلك كله فإن فيه مراقبة لله – عز وجل – تجعل المرء على صلة دائمة بربه مما يولد فى قلبه الخشية ، ويعطى للروح جرعة قوية من التقوى فلا تجترىء على المعاصى ، ولا تقترب من ساحاتها وعندئذ يسلم المجتمع من الوقوع فى المحظور .

وليس كل صوم يؤدى هذه الوظيفة ، أو يستطيع منحها لكل صائم ، ذلك لأن الصوم عن الأكل والشرب فقط وإن أحدث الفتور فى الجسم ، ولكنه ليس فيه غذاء للروح ، ولا خشية لله ، وكثير من الناس ينتهز فرصة الصوم ليتخذ منها موسما لكل ما تشتهيه نفسه من ألوان الطعام ، ويتخذ جوعه طول النهار ذريعة لإعداد أفخر الموائد ، وإتخامها بأصناف المأكولات الشهية وهناك آخرون يصومون عن الأكل والشرب ، ولا يتورعون عن الكذب والزور والبهتان ، والخوض فى أعراض الناس .

وهؤلاء وأولئك قد جعلوا للشيطان عليهم سبيلا ، وفتحوا له بابا يدلف

منه إلى سويداء قلوبهم ، فيحركها نحو الحرام ، ويسوقها إلى كل محظور وممنوع

فأما الصوم الذى يكون حقيقة وجاء للصائم يكفه عن الحرام ، ويحفظه من الآثام فهو ذلكم الصيام الذى أراده الله لعباده ، وشرعه لهم نبيه ، من الاقتصاد فى الطعام ، وكف اللسان عن التكلم بالبهتان ، الصيام الذى يملأ القلب خشية لله – عز وجل – ويزود الروح بما يصلها بالله فيمنعها من معصيته ويحول بين الصائم وبين الفجور وقول الزور .

وآخر الدواء الكى ، ذلك لأن الإسلام حينما وضع هذه الحلول ، إنما وضعها للأسوياء من الناس ، الذين يملكون من قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة ما يجعلهم يتحكمون فى غرائزهم ، ويلتزمون بالجانب الأخلاقى .

فأما الذين تتحكم فيهم شهواتهم ، ويصبحون عبيدا لأهوائهم ، فهؤلاء لا يجدى معه ذلك العلاج الهادىء الرفيق ، وحينئذ لابد من استعمال الزواجر والروادع ، ولهذه النفوس المتمردة ، والقلوب المريضة ، شرع الله – عز وجل – الحدود ، يردع بها أولئك المستهترين ، ويوقفهم عند حدهم بالإجبار ، ماداموا قد فقدوا حاسة الاختيار الصحيح ، وحرموا من التمييز بين الطيب والخبيث .

والإسلام عندما ينفذ الحدود فى هؤلاء لا يكون فى ذلك حجر على حريتهم ، أو امتهان لكرامتهم ، بل مثله فى ذلك كمثل الطبيب ، يجرع المريض من الدواء ليصح ويعافى ، ويصبح عضوا مفيدا فى جسم المجتمع الإنسانى .

ليس هناك عاقل يتهم الطبيب المعالج بالقسوة على المريض حينما يرغمه على تناول الدواء الذى لا يرغب فيه ، ذلك لأنه يريد مصلحة ذلك المريض ويقصد إزالة العلة عنه ، ولو كان ذلك الإرغام فى ظاهره تجريدا له من حريته ولكنه الأمر الذى لا يمكن أن يعافى بدونه .

والإنسان الذى يرتكب الفاحشة مريض فى خلقه يحتاج إلى دواء يتناسب وحجم الجريمة التى ارتكبها ، والجريمة ليست سهلة ، وعواقبها ليست هينة ، وإنما هى جريمة بشعة بقدر ما يترتب عليها من الآثار ، وعواقبها وخيمة قذرة ، لأنها تخلط الأنساب ، وتورث من لا يستحق الميراث وتلحق الولد بغير أبيه ، وتكدر صفو المجتمع ، وتقطع الصلات بين أفراده .

لهذا شرع لها الإسلام الحد الرادع والعقوبة المفزعة ، وقد راعى التشريع عند وضع الحد التفريق بين الأعزب الذى لم يسبق له الزواج ، وبين المحصن الذى أعف نفسه بالزواج ولو صار أعزب بعد ذلك ، حيث جعل حد الأعزب جلد مائة وتغريب عام مراعيا فى ذلك عدم الحصانة ، فإن الأعزب إذا ارتكب الجريمة ، يكون قد ارتكبها بدوافع الشبق المفضى إلى عدم تقدير العواقب ، ثم جهالته بالعملية الجنسية تجعله يقدم عليها وهو فى حالة تشبه حالة اللاوعى بموجب الحوافز الداعية إلى ارتكابها من ثوران الشهوة ، والإغراء ، وعدم ممارستها من قبل .

أما الذين أعفُّوا أنفسهم بالزواج وجامعوا نساءهم فى نكاح صحيح ولو مرة واحدة فإن عقوبتهم تكون أشد ، وحدهم يكون أنكى ، وهو الرجم حتى الموت ، وذلك لأنه حصن نفسه بالزواج ، وأعفها بالوطء فلم يكن له أن يدنسها بعد ذلك بالسفاح ، أو يلطخها بعار الاعتداء على شرف غيره وعرضه .

والإسلام حينئذ نظر إلى العلاقات الجنسية على أنها ذات مهمة أسمى من مجرد التلذذ والاستمتاع ، فإذا كان هذا هو حالها مع الزوجة الحلال الطيبة المباحة ، فكيف يسمح للإنسان بالاستمتاع لمجرد الاستمتاع مع غير الزوجة ، ولا يمكن أن يكون مع هذا الاستمتاع قصد آخر .

ومن جانب آخر فإن الإسلام يريد أن يسمو بأخلاق المسلمين فيشعرهم بأن الدوافع الجنسية مهما بلغت لن تزيد عن لحظات لا ينبغى للمؤمن أن يدنس نفسه ، ويعتدى على عرض إخوانه بسببها على أن هذا الزانى إنما هو لص من نوع خسيس ، فإن اللص يسرق المال ويسرق المتاع وهى أعراض يمكن تعويضها ، والحصول على غيرها خير منها ، أما الزانى فإنه يسرق شرف الناس وأعراضهم ، وهما لا يقومان بمال أو متاع ، ولا يمكن تعويضهما بحال من الأحوال .

على أننا ندرك من أن مجرد الوطء الحلال ولو مرة واحدة يحصل به الإحصان دليلا على ما يكتسبه المسلم من معرفة بحقيقة الميل الجنسى وأنه عملية بهيمية صرفة لا تستحق أن يضحى الإنسان بنفسه من أجلها ، ولهذا إذا اعتدى بعدها فإنه لا يستحق أن يكون مع الأحياء بخلاف الأعزب الذى يجهلها ، ولا يدرى ما وراءها .

وهناك أمر آخر وهو أن الزانى المحصن حين يزنى يكون متعمدا قتل الجنين وأمه معنويا فى المجتمع ، فليس له إلا القتل الحقيقى جزاء جريمته ، والأعزب وإن حدث منه ذلك إلا أنه يكون كمن قتل خطأ فلا يحكم عليه بالموت .

obeikandl.com